ام هل هناك حياتكم صفو فليس بها شوائب
إنا لنفزع من مصا ئب لاجئين إلى مصائب
انا بظاهر ارضنا غرباء مغصوب وغاصب
الظلم ضيق في وجو هِ رجائنا طرق المكاسب
والعلم مغلوبٌ فلا يعلى به والجهل غالب
انا بحالٍ لو علمتم غير محمود العواقب
نسعى لنفع الآخري ـن من الذين لهم مناصب
ونعيش في حال التما سة بالاماني الكواذب
لهفي على الشبان قد سلكوا سبيلاً للمعاطب
غلوا بكل قساوة فبكتهمو حتى الاجانب
ويلي على بيض نشر ن من الاسى سود الذوائب
يخمشن حرَّ وجوههـ نَّ ويلتدمن على الترائب
يبكين فقدَ اعزةٍ ماتوا فهنَّ لهم نوادب

بغداد

ج . . .

القسوة في المدارس

أُسست المدارس لانماء القوى العاقلة في الانسان ولتوسيع المدارك وتنوير العقول وتهذيب النفوس وتدميث الاخلاق وترقية الافكار ولبث الالفة والاخاء والحب وحقائق الحرية والمساواة ونشر مبادي الحق والخير والجمال والشرف والشهامة والجرأة ونزاهة القلب . ومن اخص واجباتها ايضاً الاعتناء بالصحة من وراء الغاية وتقوية الجسم تقوية للعقل وكبح جماح الاهواء وانهاض الهمم ونقض كل وهم وضلال

وتمويه وخرافة وتقويم كل اعوجاج وغرس صفات الانسانية الصرفة وما طاب من العلوم الضرورية للمرء ضرورة الطعام والشراب واللباس . وبالجملة فقد انشئت المدارس لتقود الانسان وتدفعه في سبيل الكمال الانساني

قال كانت الفيلسوف الالماني : سر ارتقاء الانسانية في المدرسة . وقال جول سيمون فيلسوف الفرنسيس ليس من واجبات المدارس تعليم العلوم فقط فان من اخص واجباتها بث الفضيلة والاقدام . وقد اتفق العلماء على الاقرار بوجوب تهذيب النفوس قبل تعليم الرؤوس وتفضيل المبادىء الادبية على الاصول العلمية ونزع كل غلظة وفظاظة وسيئة باللين والرفق والاقناع

فليست الغاية اذن من انشاء المدارس اعتقال الاولاد واملاء الذاكرة فيهم من قواعد الكتب اللغوية والعلمية والرياضية والطبيعية وتحقيرهم وارهابهم واهانة نفوسهم وجرح عواطفهم وايجاعهم بقسوة الشتم والضرب كما يخيل للمعلمين الذين يتوهمون انهم لا يستطيعون ان يعلموا و يهذبوا الا بالشتم والضرب

الشتم والضرب في المدارس اثران من آثار الهمجية والتوحش يمثلان كل التمثيل في مدارس القرن العشرين على ما فيه من دلائل التقدم العلمي وعلائم الارتقاء الادبي . فيعيدان ذكرى اقبح صفات العصور الغابرة ايام سادت الخشونة والقسوة ولم يكن حد اعتبار الحيوان الناطق فيها يتعدى حد اعتبار رفيقه الحيوان الابكم الا بشيء لا يذكر . وهما من اكبر العوامل الحائلة دون اقبال الاولاد على المدارس برغبة داخليه وشوق طبيعي كما انهما من اهم البواعث التي تمثل لهم المدارس سجوناً مظلمة ومحال اسر ومطابق عذاب وشقاء

نحن في زمن لا غنى لنا فيه عن العلم وقد اصبحت المدارس من حاجاتنا الاولية ومن الضروريات التي يجب الاعتماد عليها بعد اعتماد الامهات والآباء في

اعداد رجال المستقبل فنحن اذاً في اشد حاجة الى ترغيب احداثنا في المعارف وتحبيب المدارس الى نفوسهم وجعلها في عيونهم اماكن سرور مقدسة تترفع عن كل ما يمثل الحيوانية ودور استفادة تتعالى عما يشين الانسانية

ومن الاسف ان القسوة ما زالت شعار المدارس والشتم ما انفك لسان حال المعلم والضرب سلاحه وعدته ومع كل ما وصف من اضرار هذين الاثرين الفبيحين وقيل في لزوم ابادتهما ومع كل ما صدر من نواهي ذوي النفوذ واوامر الحكومات في وجوب منعهما ما برح المعلمون قساة القلوب يشتمون الطلبة لاقل الاسباب وينهالون عليهم بالضرب لادنى الهفوات

مضت قرون كثيرة والقسوة ساعد المربي اليمين وعضد المعلم المتين والشتم والضرب رائجان في المدارس حتى ان سليمان الحكيم قد اشار باستعمال القضيب في تهذيب البنين . وكان الاسبرطيون يتركون الاولاد في المدرسة جياعا ويضربونهم كثيراً تشجيعاً لهم على مشاق الحياة وعند ما يعجز الولد عن التجلد ويرفع صوته من الالم تتلطخ حياته بالعار . وكان قدماء المصريين يعاقبون التلاميذ بالضرب بالعصي متمثلين بقول القائل — ان آذان التلاميذ في ظهورهم فهم لا يسمعون الا اذا ضربوا . ولقد بلغ من اعتقاد الناس قبلاً بفائدة القسوة في المدارس ان صار العامة يازجون التلاميذ بقولهم « راح العيد وفرحاته وجاء المعلم وقتلاته » وامسى الوالدون يخوفون الاطفال من المعلمين كما يخوفونهم من المارد والجن والغول . وكان الرجل يقتاد ابنه الى المدرسة ويقول للمعلم لك اللحم ولي الجلد والعظم فلا تبخل بالفلق او تتوانى بالضرب . وخير هدية كانت تسر المعلم في حزمة قضبان وخصوصاً ان كانت اغصان رمان . وجل وصية كان يوصي بها هي الشتم بغلاظة والضرب بقسوة وكان يلام اذا تبسم وبش في وجه الاولاد وتهاون بالعقوبات الشديدة ولم يستعمل

وظيفة المنتقم لا وظيفة المهذب

هكذا كانت المدارس سابقاً بؤرة القسوة والجور ومستودع الشتم والضرب على ان تلك الايام لم يتجاوز فيها العلم حد الظنون ولم تكن المعارف غير قواعد لغات ولم يكن المعلمون افضل من رعاة المواشي · وعناء الاخلاق والنفوس كانوا فلائل نادرين والغرور والتقليد واتباع الاهواء والادعاء والتمويه والتظاهر امور كانت من اخص صفات المدرسين

اما الآن فماعذرنا وقد تغيرت الاحوال وتبدلت المدارس بفضل العلم الصحيح المؤيد بالتجربة والبرهان والاستقراء والاحصاء وظهرت لدى الناس اضرار التربية القاسية المذلة الموجعة فعمل الفضلاء على استبدال التربية اللطيفة المعززة المقنعة وبها سعوا جهدهم حتى استتب لهم الامر في اكثر البلدان · واول من سعى في ذلك في بلاد المشرق على باشا مبارك احد وزراء المعارف في مصر والدكتور دانيال بلس رئيس الكلية السورية السابق في بيروت · جعلا التعليم مقروناً بكرامة النفس وابطلا الشتم والضرب بتاتاً واكتفيا بالقول والقدوة · ومنذ ثلاث سنين صدر امر نظارة المعارف العثمانية بمعاقبة المعلم الذي يضرب تلاميذه وبمنعه من التعليم اذا عاد لضربهم مرة اخرى وقد حظرت جمعية فلسطين الروسية على معلمي مدارسها ضرب التلاميذ وجعلت من اهم قوانينها طرد كل معلم يقسو ويتصلف

الا وان صفات الانسانية ترتقي في الكون العاقل بواسطة التربية الحسنة والتعليم الجيد · واهم مقتضيات التربية والتعليم الضرورية جداً هي ان يكون المربي والمعلم قادراً على اقناع التلميذ بأن ما ينهاه عنه مضر حقاً وما يدفعه اليه نافع لا محالة وان ما يلقنه اياه من الآداب والعلوم ليس الا مصابيح بين طريق حياته وعوامل تقوده في سبيل الكمال الانساني دون ان يتعدى حد العقل والضمير

فيضغط على الاول ويضعف الثاني او بالحري يميته وكذلك اقناع التلميذ بحسن نيات المعلم بما يبديه نحوه من الرقة واللطف ودلائل الحب والاكرام . فالمعلم الذي يقسو على التلاميذ ويعاملهم بالشتم والضرب بحجة انه يروم نفعهم يضر من حيث يقصد الافادة . وبدلاً من نزع السيئات من اخلاقهم نزعا باتاً كما يخال يزيدها تمكيناً فيهم . لان الولد الذي يحسن سلوكه خشية الشتم لا حباً بالآداب ويتقن دروسه رهبة الضرب لا رغبة في النجاح يقيم في اعماق نفسه اماكن حصينة للسيئات حتى اذا لاحت لها الفرص وخلت من الرقباء وامنت العقاب تظهر من مكامنها بادية للعيان وهكذا يتعلم الكذب والخداع والرياء ويشب على الجبن واللؤم والحقد وغير ذلك من نتائج القسوة والضغط ونتأصل فيه كراهة المعلم ويخاله عدواً لدوداً . هذا عدا ما يقتبسه من قسوته ويعيه في دماغه من كلماته الفظة الغليظة الدنيئة وعدا ما يتشربه من شراسته وعناده واستبداده

فالقسوة في المدارس من اكبر آفاتها ومن اسوأ سياتها لانها تخمل عقول الاحداث وتحط نفوسهم وتفقدهم الشعور الادبي وقوة الارادة والاعتماد على النفس وصحة الحكم على الامور والتمييز بين الحسن والقبيح اذ يستسلمون للمعلمين بعقولهم وقلوبهم وينقادون الى اهوائهم (اي اهواء المعلمين) انقياداً اعمى يصدهم عن اطلاق مجاري العقل والابتكار والاستنباط والاستنتاج ويزيدهم شراً على شر والفرق بين آداب تلاميذ المعلم المستبد القاسي الفظ المهين الضراب ونجاحهم وبين آداب تلاميذ المعلم اللطيف المحب المكرم المقنع بين ظاهر

قال الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده : جعل التعليم مقروناً بكرامة النفس هو قوام التربية فان المعاقبة على الذنب بالاهانة والقسوة لا تؤدب النفس لانها تخفي الاخلاق الذميمة ولكنها لا تمحوها بل تزيدها وتقويها فتكون كامنة حتى اذا

تسنى لها الظهور تظهر في اقبح الصور . واما الذي يمحو الاخلاق الذميمة فهو الاقناع بقبحها وضررها وحسن المعاملة وتكريم النفس حتى تتكرم من الشوائن وتأنف من كل ما ينافي الشرف

وقال ابن خلدون ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم ذلك ان ارهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في اصاغر الولد لانه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين او المماليك او الخدم سطا به القهر وضيق عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الايدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيتها فارتكس وعاد في اسفل السافلين وهكذا وقع لكل امة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف . واعتبره في كل من يملك امره عليه ولا تكون الملكة لكافلة له رفيقة به وتجد ذلك فيهم استقراء ونظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى انهم يوصفون في كل افق وعصر بالخرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكبد وسببه ما قلناه فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده ان لا يستبدا عليهما في التأديب . ومن كلام عمر من لم يؤدبه الشرع لا ادبه الله حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماً بان المقدار الذي عينه الشرع لذلك املك له فانه اعلم بمصلحته ومن احسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الامين فقال : يا احمر ان امير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة وكن له بحيث وضعك امير المؤمنين اقرئه القرآن وعرفه

الاخبار وروه الاشعار وعليه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك الا في اوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة الا وانت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير ان تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ و يألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان ابيا فعليك بالشدة والغلظة

هذا رأي لحكيمين كبيرين من آراء الحكماء التي لا تحصى في هذا الشأن دلهم عليها العلم والاختبار والاستقراء والزمان و يضيق بنا المقام اذا اردنا احصاء الحوادث المحزنة التي جرت وتجري في المدارس المعروفة بالقسوة . كم من امهات ثكلن بنيهن لشراسة المعلمين ولكم غض آباء الطرف عن قسوة المدرسين فافقدوا احداثهم وكم من اولاد ضاع مستقبلهم من غلظة المعلمين . سلوا المستشفيات والبيمارستانات سلوا الكهنة والمشايخ والمشعوذين والاطباء والاحصائيين علهم ينبئونكم صريحاً عن شهداء القسوة في المدارس . ولرب معترض من مزاولي حرفة التعليم الجالسين على كراسي افلاطون وجول سيمون ومكس ملر وابن رشد المتحلين لقب السيد المسيح ينتقد بعض كلامي و يرشقني باسهم من ملام و يتخذ وصية حكيم الاسرائيليين حجة علي وما جوابي الا ان القسوة في المدارس لا تفيد الا في البلاد المتوحشة فقط حيث لا أم تهذب الاطفال ولا أب يحسن القدوة ولا هيئة مرتقية تساعد المعلم في نياته ولا قدوة خير تمنع الشر . ومع ذلك فيقتضي حينئذ لمستعمل العصا (في التربية والتعليم) حكمة سليمان وصبر ايوب ورقة السيد المسيح و بحث دروين واستقراء سبنوزا والا فالقسوة في المدارس مضرة على كل حال

بيروت

جرجي نقولا باز